تاريخ ترجمة المسرحية إلى العربية

أ: لباد فاطمة الزهراء البرم

جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان

سنة ثالثة دكتوراه ل.م.د تخصص دراسات لغوية في ضوء التواصل الحضاري

إشراف: أ|د: عبد الجليل مرتاض

الملخص:

يتناول هذا البحث موضوع تاريخ ترجمة النص المسرحي لأنه يعتبر نصا أدبيا من نوع خاص جدا، لأنه نص مكتوب يحمل أبعادا منطوقة وحركية، يقوم على عناصر فنية وتقنية تدخل جلّها في إطار بناء سياق هذا النص، ولذلك كانت ترجمته خاصة جدا، فالتلقي فيها يكون مباشرا إلى الجمهور، لا يفتح المجال بتاتا للتفسير أثناء التلقي، فالترجمة نفسها من شأنها تفسير كل ما يحتاج إلى تأويل وشرح في النص المسرحي الأصلي، لكي يصل واضحا إلى متلقيه المباشر، وهذا ما يجعل كل الأمانة في النص المسرحي تتعلق بالتأثير المسرحي المباشر، وعلى أساسه يقوم التكافؤ في الترجمة.

Summary:

This research deals with the subject of the history of translating the theatrical text because it is considered as a special literary text, because it has pronunciation and mobility dimensions, based on artistic and technical elements which constitute the context of this text, for that its translation was very special, and the reception there is direct to the public, it doesn't allow any interpretation during the reception. Translation itself can explain all what needs to interpret and explain in the original theatrical text, in order to be clear to its direct recipient, and that's what makes the integrity in the theatrical text related to the directtheatrical effect which is the basis of the equivalence in translation.

ليس هناك شيء أقدر على جمع شتات هذا العالم ولمّ شمله والتوحيد بين أجناسه وشعوبه من انتشار الثقافات والحضارات، فهي الشيء الوحيد الذي يهب نفسه للتاريخ، وواجب كل قادم جديد إلى الأرض أن يصيب قدرا من هذا التراث الذي تسلّمه الإنسانية إلى الشعوب جيلا بعد جيل مهما اختلفت لغاتهم وأزمانهم، فإن ثمرة الفكر تتجاوز حدود الزمان والمكان وليست بحاجة إلى جواز سفر أو تأشيرة دخول، فالأدب والفكر وكذلك العلم أجنحة طائرة تهبط في كل أرض وتجتاز كل مكان، وتحط بأجنحتها فوق ما تشاء من بلاد، مخترقة الحواجز، تنفذ إلى قلوب من يريدها، وتعانق فكر من يهواها.

فالأديب والمفكر والعالم هم جميعا أبناء هذا الكوكب لا ينتمون إلى حدود جغرافية أو مكانية محددة، وإنما انتماؤهم إلى الإنسان إلى البشرية، إلى هذا العالم الفسيح الذي نعيش فيه وبالضرورة فإن كل نتاج لأديب أو عالم أو مفكر، فكل نتاج من هذه يهب نفسه للتاريخ ويصبح ملكا للإنسان.

ومن هنا فلم نعد نرى في زماننا هذا شعبا أو أمة، بعد هذا التطور في وسائل الإنتاج والتوزيع وتقدم الفكر والعقل والتكنولوجيا، وازدياد الروابط والصلات التي تجمع بين الناس في شتى أنحاء العالم، لم نعد نرى في زماننا هذا شعبا أو أمة تغلق نوافذها على العالم وتبقى محجوبة عن تراث الإنسانية الفني والفكري في عصورنا المختلفة. (1)

إن الكثير من التراث العالمي سواء أكان فنيا أم أدبيا أم علميا فإنه ينتقل عبر حركة الترجمة والشروح والتعليقات، فيدعو كل أمة إلى الاعتراف من منابعه تستسيغه وتهضمه وتتمثله ثم تخرجه للناس مرة أخرى مصبوغا بلون تفكير كل أمة مطبوعا بطابع عقائدها.

وفي تاريخ الأمم شواهد بارزة على هذا، خذ مثلا حركة المد الزاخر في تاريخ المسلمين في القرن الثاني الهجري وما بعده، حين شغل العلماء باللغة وما يتصل بها من دروس وبحوث وما تلا ذلك من جمع لمصادر كثيرة مختلفة قامت فيها حركة الترجمة عن اليونانية والفارسية والهندية بدور كبير. (2)

ولقد سارت تلك الحركة على مرحلتين:

الأول: يعمل فيها العلماء فرادى، كل بحسب مزاجه ودون أن يكون للدولة شأن بهم.

وأما الثانية فقد كان للدولة فيها شأن عظيم، إذ أنشأ المأمون ما يسمى ببيت الحكمة، حيث يجتمع القائمون على الترجمة تحت رعاية الخليفة، وكان نتيجة ذلك أن أصبح بين الدارسين ترجمات لمعظم مؤلفات أرسطو، وما كتبه الشارحون للأفلاطونية المحدثة وبعض محاورات أفلاطون، ومعظم مؤلفات جالينوس، وأجزاء مما كتبه غير جالينوس في الطب، فضلا عن المؤلفات الأخرى في ميادين العلوم، ومنها كتاب إقليدس، وكتاب أرسميدس، وهكذا فلا تكاد تبلغ نهاية القرن الثالث الهجري إلا وقد شهدت العربية محصولا طيبا مما أنتجه السابقون في ثقافات أخرى.(3)

إذن هذا التلاقي والتمازج واختلاط أدبين أحدهما مكتوب في لغته القومية والآخر مكتوب بلغة أجنبية، ثم البحث في آثار هذا الاختلاط من تفاعل بين الأدبين، وما نتج عنه من أخذ وعطاء، سواء على المستوى الإبداعي أو الابتكاري الفني أو على مستوى النقد الأدبي، هذه جميعها هي المحاور الأساسية التي يدور حولها هذا العلم الحديث الجديد المسمى بالأدب المقارن.

ويحاول العلماء الذين يضعون تعريفهم للأدب المقارن أن يكونوا أكثر دقة وحيطة في تحديد مدلوله حتى لا يكثر الخطأ في فهمه، وبالتالي في دراسته التي قد تتعثر خطاها نتيجة لذلك الخطأ... لذلك حرص معظم الذين ألفوا في هذا الفن وهم قليلون في عالمنا العربي على إعطاء تعريفات محددة إلى حد كبير.

ومن هذه التعريفات ما ذهب إليه الدكتور محمد غنيمي هلال بقوله: "مدلول الأدب المقارن تاريخي، ذلك أنه يدرس مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة، وصلاتها الكثيرة المعقدة، في حاضرها أو في ماضيها، وما لهذه الصلات التاريخية من تأثير أو تأثر، أيا كانت مظاهر هذا التأثير والتأثر: سواء تعلقت بالأصول الفنية العامة للأجناس والمذاهب الأدبية أو التيارات الفكرية، أو اتصلت بطبيعة الموضوعات والمواقف والأشخاص التي تعالج أو تحاكي في الأدب، أو كانت تمس مسائل الصياغة الفنية والأفكار الجزئية في العمل الأدبي، أو كانت خاصة بصور البلاد المختلفة كما تنعكس في آداب الأمم الأخرى، بوصفها صلات فنية تربط ما بين الشعوب والدول بروابط إنسانية تختلف باختلاف الصور والكتاب، ثم ما يمت إلى ذلك بصلة من عوامل التأثير والتأثر في أدب الرحالة من الكتاب"(4).

وإذا أردنا أن نسوق بعض المقارنات التي تدخل في صميم الأدب المقارن فإننا نذكر على سبيل المثال لا الحصر، تأثير الأدب اليوناني واللاتيني في أدب كتاب عصر النهضة وشعرائهم من واقع نظرية المحاكاة للأدبين، وكذلك مثال موضوع "مجنون ليلى" في الأدبين العربي والفارسي، حين نحاول الكشف عن أوجه التأثير والتأثر، وكيف اختلف التناول وتطور، وكيف بعد موضوع "مجنون ليلى" من الأدب الفارسي عن ميدان الحب والغزل العذري إلى ميدان التصرف والرمزية في الأدب الفارسي.

والملاحظ في هذا الأدب المقارن هو أن هذا الانتقال من أدب إلى آخر يتم عن طريق الترجمة، فالترجمة هي بمثابة همزة وصل بين الأجيال وهي وسيلة هامة من وسائل نقل الآداب من أمة إلى أمة أخرى، ولا يخفى ما كان للترجمة من أثر كبير في أدبنا العربي ذاته وفي فلسفتنا الإسلامية، فقد كانت للترجمة عن اليونانية في القرن الثاني الهجري إلى العربية تأثيرها وأهميتها، وكذلك الحال في عصر النهضة الحديثة كما يسمونها أحيانا أي بعد الحملة الفرنسية على مصر، ودور المطبعة في النشر، ولا يخفى ما كان للترجمة من دور في نقل الآداب الأوربية وكذلك الفكر الأوربي وما تلا ذلك من تأثير وتأثر تبعا للاختلافات التاريخية والجغرافية والأدبية.

ولنأخذ على سبيل المثال الموازنة بين الأدبين العربي والانجليزي، فإن الناظر في الأدبين العربي والانجليزي يرى شدة ما بينهما من تباعد، وكثرة ما هنالك من وجوه الاختلافات، وقلة ما فيهما من وجوه التشابه والاتفاق، ولا غرو فإن الظروف الجغرافية والتاريخية التي أحاطت بنشأة كل منهما ونموه وازدهاره، كانت متباينة أي تباين، والعوامل الاجتماعية والسياسية التي تترك آثارها في الأدب كانت متضادة أي تضاد، فجاء أعظم اختلاف، في الموضوعات والأساليب والأشكال والأغراض، ولم يتفقا إلا في كل عام من الوجوه التي يستوي فيها جميع الآداب لشيوعها بين جميع شعوب الإنسانية.(5)

فإذا وازنا بين كبيري شعراء الأدبين المتنبي وشكسبير، بدا لنا الاختلاف والبون العظيم: فجانب كبير من شعر المتنبي موقوف على المدح والهجاء، ولم يقل فيهما شكسبير حرفا، وشعر المتنبي مليء بالحكم البليغة الموجزة المتجاورة يزاحم بعضها بعضا وشعر شكسبير حافل بوصف الشخصيات وتحليل النفوس تحليلا مسهبا لا يتوخى بلاغة الإيجاز في شيء؛ وبجانب المدح والهجاء والحكمة وما يتصل بذلك لم يكد المتنبي يطرق موضوعا آخر بعيدا عن دائرة حياته الشخصية، بينما روايات شكسبير وقصائده تعج بوصف الطبيعة وتقديس الفنون كالموسيقى وتمجيد الأبطال، وتضرب في شعاب الخرافة وأرجاء التاريخ؛ وشكسبير يراوح في نظمه بين أشكال الشعر المختلفة، بين الشعر المرسل والفقرات المتراوحة طولا، المتداخلة القوافي، على حين ظل المتنبي – وهو الشاعر العظيم المتمكن من اللغة والأدب المطّلع على حقائق الحياة – متمسكا بالشكل الشعري الوحيد الذي وصل إليه المتقدمين، وهو القصيدة الموحدة الوزن والقافية غير الموحدة الفكرة، فلم يمنح الأدب العربي شكلا ولا موضوعا لم يكن قبله.

وجليّ واضح أنهذه الفروق بين الشاعرين العظيمين إنما ترجع إلى العوامل الاجتماعية والسياسية، التي كانت تحيط بكل منهما وتكوّن نفسيته وعقليته.

هذا الاختلاف في البيئتين الجغرافية والظروف التاريخية، والعوامل الاجتماعية والاقتصادية، والجبلة والتقاليد والمنازع، وهذا التباين بين الأدبين في المشرب والأسلوب والموضوع وشخصيات الأدباء وسيرهم، كل ذلك يجعل الموازنة بين الأدبين من أمتع الدراسات الأدبية وأحفلها بالدروس والعبر، وأدعاها إلى استخلاص المبادئ والنظريات الأدبية، وإلى التفطن إلى العوامل المؤثرة في الآداب ونتائجها، وقديما قيل: وبضدها تتميز الأشياء. ولو كان في الموازنة بينهما كبير طائل، ولا كان تتبع ظواهرهما يستحق طويل عناء، ولأشبها أن يكونا أدبا واحدا مشتركا بين أمتين، موزعا بين لسانين. (6)

أما ظهور المسرحية بشكلها كاملا كفن مستقل بذاته في الوطن العربي فقد كان من خلال ترجمة النصوص المسرحية الغربية إلى اللغة العربية.

فقد ولد المسرح في مصر يوم أن أخرج مارون النقاش اللبناني المسرحية العربية الأولى "البخيل" وذلك في أواخر

1847م، استحياء من موليير، فلا بد أن نلح إلحاحا شديدا على أن هذا قد كان ميلادا مؤقتا للمسرح العربي بمجرد انبثاق إلى الوجود ومحاكاة لظواهر فنية رآها المثقفون العرب في بلاد أوربا، فاستوردها استيرادا إلى بلادهم.

فقد اقتبس مارون النقاش مسرحيته من إيطاليا حين سافر إليها في سنة 1841م، وابتدأ تمثيله باللغة العربية الدارجة، ثم قدم روايته الثانية (أبو الحسن المغفل أو هارون الرشيد) سنة 1849م.

أما في مصر فأول مسرح عربي أنشئ بها فهو ذلك الذي قام به يعقوب بن صنوع بالقاهرة في يوليو 1876م، وقد اقتبسه كذلك من إيطاليا التي درس بها ثلاث سنوات، وكان يجيد عدة لغات مكّنته من أن يدرس هذا الفن دراسة متقنة، وقد مثل في خلال سنتين عاشهما اثنتين وثلاثين مسرحية ما بين مقتبس من الأدب الغربي صبغه بصبغة محلية، وما بين موضوع يعالج مشكلات اجتماعية وإن غلبت على مسرحياته اللغة العامية، وقد راجت مسرحياته رواجا عظيما على الرغم من أنها تمثل المجتمع المصري بعيوبه في سخرية لاذعة أحيانا. (7)

فقد بدأت حركة الترجمة عن المسرح العالمي نشاطها في البلاد العربية مع أواسط القرن التاسع عشر، وكانت عملية الترجمة أسبق من حركة التأليف بسنوات طويلة.

وربما يكمن العجب في تلك السنوات الطويلة التي استمرت فيها حركة الترجمة هي النافذة الوحيدة التي نطل منها على آفاق المسرح، على الرغم من تصدع هذه النافذة وتآكلها آنذاك، ولم نتمكن كل هذه السنوات من صنع تراثنا المسرحي الخاص. (8)

وعلى الرغم من أن حركة الترجمة كانت هي همزة الوصل بيننا وبين المسرح العالمي، فإنها لم تصل إلى مرحلة النضج ولم تبلغ أوج ازدهارها –كما وكيفا – إلاّ في أواسط النصف الثاني من القرن العشرين، وعبر هذا التاريخ تنوعت سبلها، وتطورت أشكالها، من بدايات ركيكة وعشوائية تتلمس طريقها، بدايات تمثلت في صور مختلفة من الاقتباس – الظاهر منه والخفي – إلى محاولات التمصير، والإعداد والتعريب، وصولا إلى الصورة النموذجية للترجمة الأدبية الراقية.

وقد ساعد على تفشي هذه الأشكال الركيكة مع بدايات نشاط الترجمة في عوامل كثيرة، منها طبيعة المرحلة التاريخية التي ظهر فيها الفن المسرحي، وعدم دراية عامة الجمهور العريض بأصول هذا الفن الوافد، ومن ثم عدم تقبله في البداية لما قدّم له من الدراما العالمية، وبخاصة التراجيديا منها، وقد انعكس منها على طبيعة متطلبات الجمهور ونوعية الأشكال المسرحية المترجمة والمقدمة له آنذاك. (9)

ومن ضمن هذه الأسباب التي عملت على تفشي مثل هذه الأشكال الركيكة و المستويات المتدنية من محاولات الترجمة عدم دراية بعض رواد ترجمة المسرح بكل ما يتطلبه هذا الفن عند ترجمته، وعدم امتلاك كثير منهم لكافة الأدوات الفنية المناسبة لترجمة النصوص الدرامية؛ إذ كان بعض رواد الترجمة في البدايات من غير المتخصصين في

هذا الفن، ولم يكونوا من المهتمين به، بل كثير منهم كانوا بعيدين في الأصل عن مجال الأدب، ولكنهم نظروا إلى هذه "الموضة" بوصفها نوعا من الوجاهة الاجتماعية، أو الكسب المادي من وراء هذا الفن الوافد الذي يرتاده الصفوة من المجتمع، وبخاصة المقلدين للمجتمع الأوربي.

حتى كان من ينتمي إلى هؤلاء المترجمين إلى عالم الأدب – رغم ما تحقق له من شهرة أدبية – لم يتورع أن يقتبس بعض المسرحيات الفرنسية المقتبسة لنفسه، بصفته مؤلفا لها، حتى أصبح يقال عن الأدب المسرحي بأن الدراما العربية نشأت وترعرعت حول سيقان الدراما الأوربية ولكن في تراب اللغة العربية (10).

كما كان للمسرح التجاري وللفرق المسرحية الاستعراضية دورهما المؤثر في انتشار مثل هذه الأشكال من التمصير والتعريب والاقتباس والإعداد، وغير ذلك من أشكال الترجمة الرخيصة غير الأمينة، وبخالصة تلك العروض التي قدمت خلال فترة الحرب العالمية الأولى، وفي أعقابها مباشرة.

ويسجل تاريخ المسرح مع أوائل القرن العشرين أول ظهور لحركة ترجمة أدبية أمينة وراقية، وقد جاء هذا الظهور على أيدي كبار الأدباء والنقاد، وكانت من ضمن هذه الترجمات مسرحيات شكسبير كمسرحية مكبث والملك لير وترويض النمرة، وتاجر البندقية...

هوامش الدراسة:

(1) المسرح أبو الفنون، جلال العشري، دار النهضة العربية، ط1/1971م، ص22-23 – المسرحية في الأدب العربي الحديث، محمد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط3/1980م، ص195.

(2) دراسات في النقد المسرحي والأدب المقارن، محمد زكي العشماوي، ط1/1994م، دار الشروق، القاهرة، ص16.

(3) مقال الدكتور زكي نجيب محمود بعنوان "نمل ونحل" المنشور بجريدة الأهرام المصرية بتاريخ 1982/12/12م.

(4) الأدب المقارن، محمد غنيمي هلال، دار النهضة، مصر، القاهرة، دت، دط، ص30.

(5) أوراق مطوية من تاريخ الأدب المقارن في الوطن العربي، وليد محمود خالص، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1/1997م، ص383.

(6) المرجع السابق، ص 389.

(7) ينظر: المسرحية (نشأتها وتاريخها وأصولها)، عمر الدسوقي، دار الاتحاد العربي للطباعة، دط، دس، ص17.

(8) ينظر: النقد وترجمة النص المسرحي (دراسة في تأثير المنهج النقدي على ترجمة المسرح العالمي)، د. محمد مدني، دار الهدى للنشر والتوزيع، مصر، دط، ص55.

(9) أفق الخطاب النقدي، صبري حافظ، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1،1996م، ص8.

(10) المسرح العربي المعاصر (قضايا ورؤى وتجارب)، د. عبد الله أبو هيف، منشورات اتحاد كتّاب العرب، دمشق، ط1/2002م، ص360.